مكان الأدب في العصر الحديث

محاضرة نفيسة القيت في جمعية الشبان المسيحية

بقلم
الاستاذ الكبير
عباس محمود العقاد

حضرات الاخوان : موضوع الكلمة التي اتشرف بالقائها بين يديكم الليلة هو « مكان الادب في العصر الحديث » . وأول خاطر يوحيه الينا هذا الموضوع ان نسأل : « وهل للادب مكان في عصرنا الحديث : عصر المادة والعلم والآلات كما وصفوه ؟ »

وجوابي بالاجمال أن نعم ! للادب مكان في عصرنا هذا بل مكان كبير ، وإن خُيّل الى الكثيرين أول وهلة أن الامر على خلاف ذلك ، لان الناس في الأغلب ميالون الى غمط « الوقت الحاضر » لاسباب عديدة . فلنحاول اذن بداءة أن نتحرّى هذه الاسباب التي تدعونا الى الاجحاف بالوقت الحاضر في كل شيء لا في الادب وحده ، فان تصحيح نظرتنا الى الحقبة التي نعيش فيها لازم لكل دراسة نافعة سواء نظرنا الى الكتب او نظرنا الى الرجال او نظرنا الى الاعمال

تصحيح مقاييس الحاضر

قلنا إن تلك الاسباب عديدة ، وأهمها فيما نرى خمسة نذكرها هنا بقليل من التفصيل

(١) فأول الاسباب التي تدعونا الى بخس الحاضر والتعسر في محاسبته والحكم عليهِ اننا تعوّدنا ان نقسم الزمن الى شطرين : الحاضر وحده شطر ، والماضي بجميع عصوره شطر آخر . فاذا قابلنا بينهما فيغلب أن نضع الحاضر في كفة والماضي كله في كفة مقابلة له تمام المقابلة وننسى ان الحاضر انما هو عصر واحد لا اكثر ، وان الماضي قد يشمل في اطوائه مئات العصور في مئات البلدان

ومن ثمّ نسمع كثيراً من يقولون في معرض المفاضلة بين حاضرهم وماضيهم حين يذكرون الادب : أين نحن يا مولانا من أيام ينبغ فيها أمثال المتنبي والمعري والبحتري وابن الرومي وابو نواس وبشار والأخطل والفرزدق وجرير

والشريف الرضي وابن هانئ وابن حمديس ؟ أين نحن من أيام امرىء القيس والنابغة وحسان وابي تمام ؟ ولا يزالون يسردون هذه الاسماء الطنانة دفعة واحدة في نفس واحد حتى يهولوا السامع ويلقوا في رُوعه أن هذا كما يقولون زمان وذاك زمان . . . . . وأن الحاضر صغير ضئيل والماضي كبير عظيم

وليس هذا كما تعلمون بالقياس الصحيح . اذ هذه الاسماء الطنانة لم تجتمع في زمن واحد ولا في وطن واحد، وانما تفرقت في أزمان شتى واوطان عدة، فالقياس الصحيح في المقابلة المعقولة ان نختار من الماضي عصراً واحداً ليس إلاّ، نضعه الى جانب «الحاضر» الذي هو كذلك عصر واحد ليس الاّ . . . وأن نختار مثلاً خمسين سنة في عهد المتنبي وخمسين مثلها في عهدنا . ثم نأخذ في التعداد والمضاهاة على هذا الاعتبار، لا على اعتبار أن الحاضر مطالب بأن يكافىء جميع الأزمان ما دامت اللغة تجمع هذه الازمان المختلفة في اسم واحد يدخل في كلمة « الماضي » المباركة !

(٢) والسبب الثاني لغمط الحاضر أننا نتلقى أحكامنا أحياناً من الشيوخ والمتقدمين في السن ، فنسمع منهم ثناء على الماضي لانه زمانهم . وانتقاصاً للحاضر لانه يوشك أن يزحزحهم عن أماكنهم ، والشيوخ اكثر الناس حنيناً الى الأيام الخالية وازراء على الزمن الحديث

(٣) والسبب الثالث للخطأ في الحكم على ايامنا اننا ننظر الى الماضي بعين الخيال فنفخّمه ونجمله ، والخيال أبداً موكل بالتفخيم والتجميل

واننا ننظر الى المستقبل بعين الرجاء فنصقله ونزيّنه ، والرجاء أبداً موكل بالصقل والتزيين

اما الحاضر فلا ننظر اليه في معظم الاحوال الاّ بعين الراغب في التبديل وان كان على رضىً بما فيه . ومتى نظرنا اليه بتلك العين بدا لنا اضطراراً في صورة الوادي الهابط بين جبلين شامخين مزخرفين : جبل الماضي المزخرف بريشة الخيال ، وجبل المستقبل المزخرف بريشة الرجاء

(٤) والسبب الرابع اننا متصلون مع ابناء الحاضر واعماله بصلات المصالح والاهواء . وهي سبيل البغض والحسد والملاحاة ، فضلاً عن أن الألفة تمحو ما لا بدّ أن تمحوه من هيبة البعد والاحتجاب

(٥) والسبب الخامس خاص بالادب العربي وما شابهه في هذا الاعتبار . فالادب العربي كما لا يخفى هو أدب العرب في أُرومته ، والعرب أمة بادية ذات قبائل متعادية . ومن دأب القبائل المتعادية أن تعتز بالانساب وتنظر الى أصولها نظرة الاكبار والاعجاب . . . فالماضي عندها أبداً هو مناط الفخر والعصبية والتفضيل

* * *

أما الاسباب الاخرى فمنها ما هو أناني وهو حبنا أن نعتذر عن أنفسنا ونتنصل من

تبعة تقصيرنا . فمتى فشلنا فالذنب دائماً على زماننا لا علينا ، وزماننا دائماً أقبح الازمان وناسه دائماً أقبح الناس !

ومنها ما هو شبه ديني ، وهو ظهور الانبياء والمصلحين في الازمان الماضية في جميع الاديان ، فيخطر لنا أن الماضي لابدَّ أن يكون خير الازمان من أجل ذلك

مع أن ظهور الانبياء والمصلحين فيه ربما كان دليلاً على حاجته القصوى الى الاصلاح . فلو لم يكن مريضاً لما احتاج الى الطبيب

من أجل هذا جميعه نبخس الحاضر حقه ونميل الى التعسر في بحث مزاياه . وقد يعصمنا من الخطأ كل العصمة — أو بعضها — أن نستحضر تلك الاسباب في أذهاننا عند المقابلة بين أيامنا وغيرها ، وان نحسب حساب هذه الاوزان عند ما ننظر الى كفتي الميزان

فالآن لايدهشنا كما قد كان يدهشنا من قبل أن نعلم أنَّ للادب في « العصر الحديث » مكاناً ، وأن مكانه هذا كبير واسع النطاق ربما كان أكبر وأوسع مما عُهِدَ في زمن من الازمان

وأظهر ما يبدو لنا من وجوه المقارنة بين عصرنا والعصور الأخرى إنما يجيء من هذه النواحي البارزة : وهي عدد المنتجات التي تنسب الى عالم الأدب ، والقابلية الادبية ، وحالة الادباء . فأن هذه هي الاشياء التي تظهر لنا لأول نظرة . فنقابل بين كل منها في عصرنا وبين نظائره في الماضي ونبني على النتيجة حكمنا الذي ننتهي اليه

فأما عدد المنتجات الادبية فكثرته واضحة ، وتفوقه على نظائره في الماضي لا يخفى علينا ولا يلجئنا الى طويل استقصاء ، لان المطابع لا تني كل يوم تصدر الالوف من الكتب والمجلات والصحف ، وفي كل منها مجال لمباحث الادب على تفاوت القيم والدرجات

وأما « القابلية الادبية » فنعني بها الرغبة في مطالعة الادب والاقبال على موضوعاته ، وسبيل المقارنة ها هنا ان نسلك في قياسها كما نسلك في قياس قابلية الطعام . . . فنحن لا نقيس قابلية الامة للطعام بصنف واحد من اصنافه نقتصر عليه دون غيره ، لان الامة قد يقل فيها بعض اصناف الاغذية ولا تقل حاجتها الى الغذاء ولا اقبالها عليه : يقل فيها القمح مثلاً ولا تكون قلته لضعف الحاجة الى الخبز ولا لنقصان الغذاء ، بل يكون نقصه لزيادة صنف آخر يعوض القمح في خصائصه ومزاياه

كذلك يجب ان نسلك في قياس القابلية الادبية ، وأمن سبيل الى ذلك ان نرجع الى بواعث الرغبة في الادب لنعلم هل هي باقية على نشاطها او اعتراها شيء من الكسل والركود ؟ فما هو اذن الباعث لنا على قراءة الموضوعات الادبية بالايجاز ؟ الباعث لنا على ذلك بالايجاز رغبتنا في « تغذية العاطفة وذوق الجمال » . ولسنا نرى ان هذه الرغبة قد فترت أو هدأت في نفوس العصريين . بل يجوز لنا ان نحسب انها نشطت حتى الجماح وثارت حتى العُرام . فبين الطوائف

التي كانت لا تُشغَل بالادب في الزمن الماضي الناس لا ينقطعون اليوم عن قراءة الصحف ومطالعة الروايات وشهود المسارح وأندية المحاضرات ودور الصور المتحركة. وما دمنا قد اصطلحنا على قياس القابلية الادبية بالرغبة في «تغذية العاطفة وذوق الجمال» فلابدَّ أن نُدخل في حسابنا كلَّ هذه المنتجات ، نعم كل هذه المنتجات حتى الصور المتحركة وما اليها من الموضوعات التي تدور على محور الرغبة في تغذية العاطفة وذوق الجمال. اذ لا ننسَ ان الباعث الى قراءة وصف رحلة أو منظر أو صورة هو بعينهِ الباعث لبعض الناس الى شهود الصور المتحركة ومطالعة الصحف والروايات . وما دمنا قد اصطلحنا أيضاً على أن نقيس القابلية الادبية بحاجة النفس لا بالصنف الذي يشبع هذه الحاجة فلا يعزب عنا اذن ان القابلية لا تنقص اذا نقص الشعر وزادت القصة ، أو نقص نوع من المقروءات وزادت المسرحيات ، او نقص الانشاء وزادت الخطابة ، فهذا تغير في مواد الغذاء الادبي لا تغير في قابلية الغذاء

* * *

أما حالة الادباء — وهي من أهم ما تنعقد عليهِ المقارنة — فالبون فيها بين عصرنا الحاضر والعصور الغابرة جد بعيد

نعم إن الوهم العارض يخيل الينا ان الادباء الغابرين كانوا أرفع حالاً من زملائهم العصريين لكنهُ في الحقيقة وهمٌ عارض لا أكثر ولا أقل ، والصواب هو عكس ذلك بلا مراء

والاَّ فمن هو أشهر الادباء الاقدمين في جميع الامم والعصور ؟ ؟

أشهرهم هو « هوميروس » صاحب الالياذة وموحي معاني الشعر الى الوف الشعراء ، فكيف كان هذا العبقري الفذ في مرتبته ومعاشهِ ؟ كان متسولاً لا يطمع في غير القليل !! واليوم تدرس « الهوميريات » للطلاب ويتولى شرحها الاساتذة والمفسرون وعلماء اللغات ، ويتعلم ابناء العلية لغة الاغريق ليطلعوا على كلام « هوميروس » كما كان ينشده ويرويه ، ويعيش الالوف من طبع ما قاله وما قيل فيهِ . ولو عاش في ايام هوميروس افقر هؤلاء المعنيين بهِ الآن لاستطاع ان ينعم على المسكين بأكلة يملأ بها جوفهُ الخاوي ، ليسمع منهُ أبلغ ما نظمهُ ورواه ويتركه وهو يعد نفسه من السعداء

افكان ذلك لان هوميروس لم يبلغ مرتبة الشهرة والحظوة عند أبناء جيله ؟ كلاَّ ! بل كان الرجل أشهر من نبغ في صناعته ، وكان في الذُروة التي يتسنمها الشاعر من مجد الشاعرية بين قومه ، ومع هذا لم يبلغ من شأنه عندهم الاَّ ان يعيش متسولاً ويحشر في طبقة المساكين . . . . . وقد يقال إن الادباء اليوم لا يبلغون كل ما يرومون . . . نعم . وليس في الدنيا أحد يبلغ كل ما يروم . وقد يقال إن الاديب اليوم يشقى في طريق النجاح . نعم. ولكنه يشقى لان المورد كثير الزحام ، لا لأنه مهمل مهجور

معدن الادب

تلك هي أظهر وجوه المقارنة، وهي عدد المنتجات وقابلية الادب وحالة الادباء . وهي كما رأينا في جانب العصر الحديث وليست في جانب العصور الماضية

وقد قلنا إنها أظهر وجوه المقارنة لان هناك وجهاً آخر يتعدى هذه الظواهر الى ما وراءها من معدن الادب في جوهره ، لا في كثرة المنتجات وقلتها ولا في الاقبال على الادب والاعراض عنهُ ؛ ولا في حالة الادباء من عزة أو مهانة . فأين يقع أدب العصر الحاضر اذا نظرنا اليه من جانب المعدن والجوهر بعد أن نظرنا اليه على الجملة من هذه الوجوه

لا ريب ان لعصرنا هذا سمات غير سمات العصور الماضية ، فنحن في زمن تستولى فيه السرعة الآلية على كل شيء ؛ وتغلب فيه اذواق الجماهير ؛ ويكثر فيه الشك والتحليل ؛ ويستعصى فيه على الفرد أن يستقل عن الشركات بالاعمال الاقتصادية

ولكل عامل من هذه العوامل أثره البيّن في معدن الادب وعناية الأدباء والقراء

فالسرعة أولت الناس بالموضوعات التي يلم بها القارىء على عجل ولا تضطره الى التعمُّق والتمحيص

وتغلّب اذواق الجماهير جعل الربح الأجزل والشهرة الأعم من نصيب الكتابة التي تألفها جمهرة القراء دون النخبة من الفضلاء

وكثرة الشك والتحليل جارت على العواطف الفخمة والعقائد الجازمة التي تملك النفوس وتغريها بالامثلة العليا والآمال القدسية الرفيعة . فأصبح كل معنى رفيع مهيب قابلاً للتجزء والتبضيع على مائدة التشريح . أما استعصاء الاعمال الاقتصادية على الافراد فقد رجح الناحية النفعية على الناحية الفنية الخالصة في تقدير شركات الطبع والتوزيع

وهذه العوامل جميعها قسمت الادب الى قسمين متفاوتين : احدهما الأروج الأشيع وهو أدب التسلية والمنفعة ؛ وثانيهما أدب الجمال والفن الخالص وهو قليل النصيب من الرواج والشيوع

فالمعدن النفيس في الأدب قليل بالنسبة الى المعدن الرخيص . ومن شأن هذه الحقيقة ان تسوقنا الى خطأ نجتنب الوقوع فيه ونبادر الى تصحيحه . فنحن اذا قلنا إن المعدن النفيس قليل في الادب الحاضر فانما نعني بذلك انه قليل بالنسبة الى المعدن الرخيص الذي يُربي عليه ويُظهر ضآلته بالقياس اليه ، ولكننا لا نعني انه قليل بالنسبة الى الآثار التي كتب لها الخلود في أي عصر ، فاذا كان أدباء المعدن النفيس اقل من أدباء المعدن الرخيص في الامم العصرية فالواقع انهم أكثر من أندادهم في اي عهد مذكور . ويحسن بنا هنا ان نستثني اصحاب العبقريات الخارقة في جميع الازمان ، فان هؤلاء ينسبون الى الزمن كله ولا ينسبون الى عهد محدود

الأدب العربي

والى هنا تلاحظون حضراتكم اننا نتكلم عن الأدب عامة في الأمم الحديثة ولا نخص الأدب العربيّ وحده بالكلام . وانما آثرنا التعميم لأننا نعتقد ان الرأي الذي لخصناه فيما تقدم يصدق على الأدب العربي كما يصدق على سائر الآداب ؛ فاللغة العربية قد استفادت في ايامنا هذه ما لم تستفده في عهد قديم على اطلاق العهود ، فاتسعت اليوم لما لم تتسع له في دور الجاهلية ولا في دور الخضرمة ولا في ابان الحضارة العباسية او الاندلسية ، وأيًّا كان الميزان الذي نزن به اللغة فالرجحان في جانب العصر الحديث . الرجحان في جانب العصر الحديث اذا وزنا اللغة بتعدد الموضوعات وسهولة التعبير عن الدقائق والمعضلات ، والرجحان في جانب العصر الحديث اذا وزنا اللغة بوفرة المصطلحات العلمية والفنية المساعدة على التعيين والاحصاء ، والرجحان في جانب العصر الحديث اذا وزنا اللغة بصحة التركيب وسلامة الاساليب ، والرجحان في جانب العصر الحديث اذا وزنا اللغة باجتماع العدد الاكبر من آثار العصور كافةً او بكثرة الشعراء والكتاب والباحثين من ابناء هذه الأيام . ومن شاء فليعدد اسماء الأدباء وأسماء الآثار الادبية في ازهى العهود العباسية او الاندلسية وليضعها الى جانب امثالها في العهد الحاضر ليتبين الفرق بين ما كانت عليهِ اللغة وما صارت اليهِ . . . . انه يستنفد جميع الاسماء القديمة قبل ان يستنفد بعضَ أمثالها في «العصر الحديث» . ويبقى الفرق في الجوهر والمعدن عظيماً ملموساً بعد ذلك في معظم الاحوال

الخلاصة

والخلاصة من جميع ما تقدم ان العلوم والآلات التي توسم بها الحضارة الحديثة لن تجور على نصيب الأدب الا اذا هي جارت على الحياة — لان الأدب هو «تعبير ناطق جميل» . . . واذا قلنا ان الانسان لا يعيش بغير تعبير ولا جمال فكأننا نقول ان الحياة لا تعيش بغير حياة

وقد يقال إن الأدب كمالي لا تلح علينا الحاجة اليهِ في كل حين . فيجب ان يقال مع هذا إن التقدم انما يقاس بأكمل الكماليات ولا يقاس بألزم الضروريات . فالطعام اللازم ضرورة وهو قسط مشترك بين الانسان وأحقر الحيوان ، والتصوير العالي كمال وهو مزية ينفرد بها ارقى بني الانسان

وإن الآلة في صميمها لهي بنت الضرورة ، وإن الأدب في صميمهِ لهو ابن الجمال ، وخير لنا — اذا تعذر الجمع بين الاثنين — ان نكون آدميين أصحاب فنٍّ من أن نكون آلات أصحاب آلات